الموانئ الجزائرية من خلال مشروع أطلس موانئ ومسالك العالم الإسلامي الوسيط(APIM)

د. علاوة عمارة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر-
قسنطينة

تعود فكرة إنجاز أطلس لموانئ وطرق العالم الإسلامي الوسيط إلى عام 2002 عندما تم تسجيل مشروع ضمن أحد الأربعة مشاريع لوحدة البحث UMR8084 التابعة للمركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)[1]. وقد تحولت وحدة البحث إلى مخبر الإسلام الوسيط (Islam Médiéval) التابع بدوره إلى مركز الأبحاث : (UMR 8167 Méditerranée-Orient). وتشرف البروفيسور فرنسواز ميشو (Françoise Micheauعلى هذا المشروع الهام منذ نشأته، بعدما اقترحه مجموعة من الباحثين الفرنسيين المختصين في تاريخ البحرية الإسلامية والعلاقات التجارية. وإذا كان هذا المشروع وليد هيئة بحث فرنسية، فهو دولي في إنجازه، لمشاركة عدد معتبر من الباحثين الأجانب فيه. ويهدف بالأساس إلى خلق قاعدة من المعطيات حول الموانئ المرتبطة بشبكة النقل والمبادلات التجارية للعالم الإسلامي الوسيط، من خلال تجميع معطيات خاصة بكل ميناء من الصين إلى الأندلس على امتداد

1- الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت، 1989.

الفترة الزمنية الواقعة بين القرن السابع إلى القرن السادس عشر ميلادي. وهو التاريخ الذي يمثل تغييرا عميقا في هذه الشبكة البحرية بفعل التوسع الاستعماري الأوروبي.

إن مشروع APIM أنشئ بالأساس اعتمادا على قاعدتين معلوماتيتين. الأولى أنجزت على برنامج Filemaker المزدوج اللغة (انجليزية-فرنسية)، حيث يقدم بطاقات معلوماتية عن كل ميناء وتتضمن البطاقة الأولى عددا من المعطيات منها :

- الاسم الحالي والأسماء الماضية للموقع.
- اسم المنطقة والدولة.
- الموقع الجغرافي والفلكي.
- فترات نشاط الميناء بالقرون الميلادية.
- خريطة للموقع.
- المصادر المكتوبة والدراسات الحديثة حول الموقع.

- البطاقة الثانية : الوصف العام للموقع.

- تاريخ المدينة والميناء.
- الوصف الطبوغرافي.
- تغيرات الموقع عبر التاريخ.
- مساحة الميناء السابقة والحالية.
- تهيئة الميناء عبر العصور، خصوصا التحصينات والبناءات التجارية.
- نوعية الميناء : عسكري، تجاري، صيد، قرصنة، مرسى....

- مخطط الميناء.
- تاريخ الموقع : فترة ما قبل الإسلام، الفترات الإسلامية.
- نشاطات الميناء : تجارية، عسكرية، دينية...

- البطاقة الثالثة : الأبحاث الأثرية حول الموقع.
- تاريخ ونتائج الحفريات الأثرية حول الموقع.
- طبقات التربة الدّالة على نشاط الميناء.

- البطاقة الرابعة : المعالم التاريخية.
رصد المعالم الماضية والحالية للموقع.
وصف خاص لكل معلم.
صور خاصة بكل معلم (قديمة وحديثة).
المخلفات الأثرية التي لها علاقة بنشاط الميناء.

- البطاقة الخامسة : الفخار.
- أنواع الفخار في الموقع.
- الفخار المحلي والفخار المستورد.
- وصف وصور لأهم قطع الفخار.

- البطاقة السادسة : المخلفات الأثرية الأخرى التي لها علاقة بالتجارة.
- النقود.
- الأدوات الحجرية.
- الأدوات الزجاجية.
- الأدوات المعدنية.

- صور لكل الأدوات.

- **البطاقة السابعة** : معلومات بيبليوغرافية حول وصف مرافق المدينة والميناء والأدوات التي لها علاقة مباشرة بالتجارة.

- **البطاقة الثامنة : الوثائق الإكونوغرافية**

رصد كل الوثائق الإكونغرافية التي لها علاقة بالموقع : صور، خرائط، رسومات، نقوش...

أما القاعدة المعلوماتية الثانية، فقد اعتمدت على النظام المعلوماتي الجغرافي (SIG)[1] والذي يهدف بالأساس إلى توظيف الخرائط والصور الفضائية والصور الإيكونوغرافية في تحديد التوسع الملاحي الإسلامي من الصين إلى البرتغال مرورا بالبحر الأحمر.

ليس هناك أي فصل بين القاعدتين في البحث المعلوماتي، نظرا لتجميع المعلومات على أسس مشتركة تكمل بعضها البعض.

تقدم المشروع منذ 2004

انطلق المشروع في 2003 وظهرت النتائج الأولية في 2004 والتي تم من خلالها إحصاء 398 ميناء في العالم الإسلامي، تم التركيز فيها خصوصا على ثلاث جهات :

- الحوض الغربي للبحر المتوسط : 86 ميناء
- البحر الأحمر : 50 ميناء
- الواجهة الجنوبية لشبه الجزيرة العربية : 48 ميناء

1- صلة الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، الرباط، 1993.

لقد تمت عملية تجميع معلومات وشواهد أثرية متوفرة في عين المكان في محاولة لإنشاء قاعدة بيانات خاصة بكل ميناء، فكانت الموانئ الجزائرية حاضرة في هذا المشروع وقد أوكل العمل إلى علاوة عمارة إضافة إلى الباحث الفرنسي دمنيك فالريان (Dominique Valérian)، أستاذ محاضر بجامعة باريس الأولى، لتغطية ساحل يمتد على مسافة 1200 كلم والمتميز بكثرة وتنوع هياكله الملاحية.

الموانئ الجزائرية بين المعطيات النصية والشواهد الأثرية

بعد القطيعة الإبستمولوجية التي أحدثها الفتح الإسلامي مع المرحلة التاريخية القديمة في بلاد المغرب، لم تظهر الكتابات الأدبية الواصفة للمدن الساحلية والمراسي إلا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وكان ذلك في الجغرافية الوصفية التي وردت في "صورة الأرض" لابن حوقل النصيبي أو في القرن الخامس الهجري/ 11م في "مسالك وممالك" أبي عبيد البكري تعطي لنا معلومات مهمة حول نشاط الواجهة البحرية لبلاد المغرب الأوسط كيف كانت مرتبطة بفضاء مغربي-أندلسي، فقد أشار الأول إلى.المراسي والموانئ التالية : مرسى الخرز-بونة -جيجل- بجاية - بني جناد- مرسى الدجاج –جزائر مزغنة – تامدفوس- شرشال- برشك – تنس- مرسى عطا – قصر الفلوس- وهران – وسلان – أرجكوك[1].

1- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، نشرت أغلب أقسام الكتاب من طرف إحسان عباس، بيروت، 1965-1973ومحمد بنشريفة، الرباط، 1984.

في حين نجد أن عدد الموانئ والمراسي يتضاعف في جغرافية البكري مما يفسر انتقال مركز الحياة المغريبية من المناطق الداخلية إلى الواجهة الساحلية بعد المجاعات الناتجة عن الجفاف وتشكل "المغتصبات" الهلالية في المناطق المفتوحة خصوصا في بلاد الزاب وقسطيلية ووارجلان وصولا إلى متيجة وجنوب جبال وانشريس[1]. ويظهر في وصف البكري بروز مجموعة من المدن الساحلية انطلاقا من مرسى الخرز وبونة ووصولا إلى جيجل، وبجاية، ومرسى الدجاج، وتدلس، والجزائر، وتنس، ووهران وهنين[2].

إن أي عمل لا بد من أن ينطلق من هذه المعطيات النصية، وإن كان من الصعب معرفة وتحديد عدد كبير من المراسي لزوال أو تغير عدد من الطبونيمات كما هو حال مرسى الدجاج ومرسى الروم ومرسى الشجرة مثلا. بالرغم من استعمال عدد من الخرائط القديمة وحتى التي تعود إلى بداية الفترة الاستعمارية الحديثة، فإنه من الصعب معرفة هذه المراسي، الخالية في معظمها، في زمن البكري، من السكان.

إن للجغرافية الوصفية دور بارز في تكملة معلوماتنا في الفترة الأخيرة من العصر الوسيط وبداية الفترة الحديثة من خلال كتاب الحسن الوزان الفاسي الموسوم بـ"وصف افريقيا"[3]. هذا الأخير يصور

1- تحقيق أبو سهل صيام، القاهرة، 2001.
2- نشر يحي بوعزيز، الجزائر، 2002.
3- تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1981.

لنا الشبكة البحرية المغربية وأنشطة التجار المسيحيين في هذه الموانئ في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

الموانئ في كتب الرحلة

لقد كانت لرحلة القاضي أبي بكر بن العربي الأثر في بلورة فن الرحلة المغاربي الذي ارتبط بالسفر إلى المشرق لقضاء فريضة الحج أو لطلب العلم أو حتى لممارسة التجارة. ولهذا فإن عددا من الرحلات تهم بصورة مباشرة مشروع الموانئ نظرا لوصفها للمدن الساحلية وتسجيل الملاحظات الشخصية لصاحب الرحلة مما يمكننا من تتبع شبكات إنتاج وانتقال المعارف بين مختلف المناطق الساحلية. وفي هذا الإطار، فإن المدن الساحلية الأندلسية تمكنت من نسج عدد من الشبكات مع الموانئ الجزائرية، خصوصا بعد استقرار القطب الصوفي أبي مدين شعيب ببجاية. إن دور كتب الرحلة في رسم معالم الخريطة العلمية لا يتوقف عند هذا الحد، بل يفيدنا كذلك في رسم معالم الخريطة الروحية من خلال وصف أنشطة المساجد الجامعة وخصوصا أضرحة أولياء المدينة الساحلية، مما يعطي معيارا آخر لحركة التنقل المرتبط بعقيدة الولاية. وتعد كل من رحلات العبدري (ق 7 هـ/13م)[1]، وابن الحاج النميري (ق 8

1- أنظر حول هذا الموضوع :

Dominique Valérian, « Les affaires de Giovanni da Pontremoli au Maghreb après la chute de Constantinople », La conquête de Constantinople : l'évènement, sa portée et ses échos (1453-2003), Actes du colloque de Tunis, 11-13 décembre 2003, dir. M. T. Mansouri, Cahiers du CERES, Série histoire, 2008, p. 171-188.

هـ/14م)[1] وعبد الباسط الملطي (ت 1415/920)[2] من أهم الشواهد النصية في هذا الجانب.

الميناء وتشكل جماعات العلماء

يلعب الميناء دورا محوريا في تنقل العلماء والتجار خصوصا مع نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، بعد تزايد الضغط الهلالي والبربري على الطرق الداخلية. وقد دونت ذاكرة العلماء في عدد من كتب التراجم، التي من خلالها يمكننا اليوم رصد تنقلات العلماء بين مختلف المناطق والمدن. وتتمتع المدن الساحلية في بلاد المغرب الأوسط باستقبالها لعدد معتبر منهم إما كعابرين في طلب العلم والحج أو مقيمين بصفة مؤقتة أو نهائية. وتحتل العناصر الأندلسية المقدمة في هذا الجانب، خصوصا بعد نجاح الجماعات المسيحية في السيطرة على أهم المدن الإسلامية في الأندلس. إن تتبع الأصول الجغرافية للعلماء يمكن في نهاية المطاف من معرفة المسالك البحرية للميناء مع عدد من المدن الأندلسية، كما يمكن أيضا من معرفة ميكانيزمات انتقال العلوم والمعارف، خصوصا ذلك الإرث الأندلسي المتنوع. وتطبيقا لعدد من المقاربات المنهجية، يمكن تتبع ظاهرة تشكل الجماعات واندماجها في المجتمعات الحضرية المحلية[3]. وفي هذا الإطار يحتل كتاب "عنوان الدراية

1- Les poteries et faïences de Bougie, Constantine, D. Braham éditeur, 1916.

2 السيوطي. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق خليل منصور، ط1، بيروت : دار الكتب العلمية، 1418- 1997، 287/2.

3- Amel BERKANIBAZIZ, Le port d'Alger et son impact sur l'organisation et le fonctionnement du tissu urbain, Mémoire de magister en aménagement urbain, USTHB, septembre 2002.

فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" لأبي العباس الغبريني (ت 704هـ/1304م)[1] أهمية معتبرة باعتباره يشكل منوغرافية علمية محلية، ويمكن الاستفادة من عدد لا بأس به من كتب التراجم الأندلسية والمراكشية خصوصا ابن بشكوال (ت 578/1183)[2]، وابن الزبير (ت 708/1309)[3] وابن عبد الملك المراكشي (ت 703/1303)[4].

الميناء في ذاكرة الخطاب المنقبي

بعد التحول التدريجي لعدد من النخب العلمية في المدن الساحلية إلى التصوف السني البعيد عن التأثيرات الفلسفية الهيلينية، ارتبطت الموانئ والمدن الساحلية بالولي الصالح مما يعني في النهاية حصر ذاكرة المدينة في شخصية الصوفي صاحب "الخوارق والكرامات"، وهو ما نلمسه خصوصا في عدد من المدن : بونة (سيدي مروان الشريف)، بجاية (سيدي يحي ثم سيدي التواتي)، الجزائر (سيدي عبد الرحمان الثعالبي)، وهران (سيدي الهواري وسيدي ابراهيم التازي). إن انتشار الولاية الصوفية له دور في رسم شبكة تنقل برية وبحرية جديدة

---

1 CNRS, Pratiques et représentations de l'espace dans les communautés méditerranéennes, par : H.Balfer, P. N.Bauratau et autres, France, 1976.

2 Gouvernal.E., Huchet. J.P. La logique du conteneur : le principal enjeu de l'industrie maritime de lignes régulières, actes du colloques, IUT de Saint – Nazaire, Université de Nantes, 1998.

3- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 109 العثمانيون والعالم المتوسطي، المغرب 2003.

4- Ministère des transports, plan de développement stratégique des ports algériens, décembre 2005, Global Insight FRANCE, Maffat et Nishol Enginears inc, Amiship USA, Algérie.

وفي عملية نشر الثقافة الروحية خصوصا في المراسي التي تتوفر على "رباطات" مما يجعلها تمارس سلطة اجتماعية قوية مبنية أساسا على ربط عدد من الجماعات بالمعلم الديني.

إن شواهد هذا التحول نجدها مدونة خصوصا في كتب المناقب والفضائل والتي من أهمها "أنس الفقير وعز الحقير" لابن القنفذ القسنطيني (ت 809/1496م)[1]، و"روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين" لابن صعد التلمساني (ت 901/1496م)[2]، و"المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن" لابن مرزوق الخطيب (ت 781/1379م)[3].

الوثائق اللاتينية : شهادة على اندماج الموانئ الجزائرية في الفضاء التجاري المتوسطي

تمتاز الوثائق والنصوص المسيحية التي تهم الموانئ الجزائرية على امتداد العصر الوسيط المتأخر بالتعدد والتنوع. فبداية من عام 1136م هناك مجموعة من الوثائق محفوظة في دور أرشيف إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وتتألف خصوصا من عقود التوثيق ووثائق الدواوين والاتفاقيات التجارية والدبلوماسية التي لها أهمية مباشرة في دراسة الموانئ الجزائرية، من أهمها مجموعة رجل الأعمال الجنوي جيوفاني

1- Dubruel. D. Transport intermodal portuaire : le cas de Hambourg, Paris, INRETS, 2003.

2- الغرفة الوطنية للتجارة والصناعة، دليل المؤسسات الجزائرية لسنة 2007

3- Gouvernal.E., Les lignes maritimes et le transport terrestre : quels enseignements peut-on tirer du cas du RAIL LINK, cahiers scientifiques du transport, n°44,2003.

دا بنطريمولي (Giovanni da Pontremoli) التي نشرت في بداية الثمانينات من القرن الماضي. وتبين هذه المجموعات من الوثائق تعدد الموانئ المقصودة من طرف التجار الأوروبيين والتي من أهمها بجاية ومرسى الخزر وبونة والقل والجزائر وهني[1]ن.

وتأتي الوثائق المصنفة في إطار دليل الموانئ (portulan) في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، بحيث أنها تورد مسالك الموانئ مع وصف خاص بالجانب الملاحي. وتتوفر دور الأرشيف الأوروبية على عدد من الوثائق الخاصة بهذا المجال، خصوصا الدليل البحري البيزي (portulan pisan) الذي يعود إلى حوالي عام 1200. وتكمل كتب الرحلات المعلومات الأوروبية الخاصة بالموانئ الجزائرية، خصوصا في نهاية الفترة الوسيطة. كما يمكن إضافة الوثائق الإيكونوغرافية وإن كانت متأخرة عن زمن الدراسة، ولكن في الوقت ذاته تعطي لنا معلومات مهمة عن تجهيزات موانئ بعض المدن الساحلية قبل التحولات الكبرى التي شهدتها في بداية الفترة الاستعمارية.

الشواهد الأثرية

تلعب المخلفات الأثرية دورا بارزا في رسم معالم الأطلس خصوصا آثار تهيئة الموانئ والأدوات الفخارية التي تمكن من معرفة انتقال السلع بين مختلف الموانئ المتوسطية. ونزخر الموانئ الجزائرية

1- Schéma Directeur d'Aménagement de l'Aire Métropolitaine d'ALGER, Ministère de l'Aménagement du Territoire, du Tourisme et de l'Environnement, Version préliminaire, 2007.

بعدد من المخلفات الأثرية خصوصا البناءات الدينية وتحصينات المدن وعدد لا بأس به من الأدوات الفخارية. وتتركز أهم الشواهد الأثرية في القالة وبونة وبجاية والجزائر وشرشال وهنين. وقد حضي الفخار بدراسات مختلفة، من أشهرها تلك التي نشرها جورج مارسي (Grorges Marçais)[1] منذ قرابة قرن من الزمن.

معلومات كافية حول موانئ، وناقصة حول أخرى

لقد أثبتت النتائج الأولية للقسم الخاص بالجزائر من مشروع أطلس موانئ ومسالك العالم الإسلامي الوسيط أن هناك تغطية معلوماتية غير متوازنة للموانئ والمراسي. فمن مجموع41. مرسى وميناء، هناك فقط سبعة موانئ فقط تتوفر على تغطية معلوماتية وشواهد مادية تمكننا من استيفاء قاعدة بيانات APIM، من حيث المراحل التاريخية للمدينة وبعض المعلومات الخاصة بنشاط الميناء. وهذه الموانئ هي مرسى الخرز، بونة، بجاية، تدلس، الجزائر، تنس، وهران وهنين.

في المقابل، هناك عدة مشاكل تواجه عدد من الموانئ والمراسي لقلة أو انعدام المعلومات حولها، أو عدم التمكن من تحديد أماكن تواجدها. ويمكن في هذا الإطار الإشارة إلى متوسة ومرسى الدجاج، وبرشك ومرسى عطا.

---

1 René Lespes : «Alger, Etudes de géographie et d'histoire urbaine », Paris, Félix Alcan, 1930.page 622.